

تَجَمَّعَ الْأَحْفَادُ الثَّلَاثَةُ حَوْلَ جَدَّتِهِمْ، وَهُمْ يَتَصَايَحُونَ : « تُرِيدُ قِصَّةَ لَيْلَانِ، وَزَمَّتْ عَيْنُهَا، كُلَّمَا بَدَأَتْ بِقِصَّةٍ، إِلَى قِصَّةٍ ثَانِيَةٍ مُخْتَلِفَةٍ. فِي الْغَالِبِ، مُسْتَوْحِيَّةٌ تَصَرُّفَاتِهِمْ وَالْمُنَاسَبَاتِ الْإِنِّيَّةِ، أَمَّا الْيَوْمَ، فَتَشْعُرُ وَكَأَنَّ يَنْبُوعَ عَطَائِهَا الْقَصَصِيِّ قَدْ نَضَبَ. فَمَا الْحِيلَةُ؟ وَتَطْلُ الْأَعْيُنُ السِّتَ شَاخِصَةً إِلَيْهَا، تَحْفِرُهَا وَتَسْتَحِبُّ ذَاكِرَتَهَا، فَتَبْتَسِمُ لِلصِّغَارِ الْمُنتَظِرِينَ بِشَوْقٍ، إِنَّهَا قِصَّةٌ حَقِيقِيَّةٌ، تَحْكِي عَنْ زَوْجَيْنِ طَيِّبَيْنِ وَغَنِيَّيْنِ عَاشَا فِي بِلَادٍ بَعِيدَةٍ، وَلَمْ يَرْزَقَا وَلَدًا. فَكَانَا يُصَلِّيَانِ إِلَى اللَّهِ، فَوُلِدَ لَهُمَا صَبِيٌّ، فِي الذِّكْرَى الثَّانِيَةِ عَشْرَةَ لِمَوْلِدِ الصَّبِيِّ، وَكَانَ الْأَطْفَالُ، وَرَفَرَفَتِ السَّعَادَةُ عَلَى الْجَمِيعِ. - وَأَنْتَ يَا حَبِيبِي، سَأَلَ الرَّجُلُ ابْنَهُ صَاحِبَ الْفُورِ : إِلَى رِحْلَةٍ مُتَمَهِّلَةٍ، تَحْمِلُنِي مَعَكُمْ، أَنْتَ وَأُمِّي، فَتَسِيحُ فِي كُلِّ مَكَانٍ، بِأَشْرَ الْأَبِّ إِجْرَاءَ الْمُعَامَلَاتِ اللَّازِمَةِ لِهَذِهِ الرِّحْلَةِ، وَبِهَذِهِ الْحَرَارَةِ، فَلَيْسَ أَحَبُّ عَلَى وَبِالسَّرْعَةِ الْقُصْوَى! بَعْدَ أَقَلِّ مِنْ أُسْبُوعٍ، أُنْجِزَتِ الْمُعَامَلَاتُ، وَأُبْحَرَ الْمَرْكَبُ بِالْأُسْرَةِ الصَّغِيرَةِ إِلَى أُرُوبَا. وَبَعْدَ أَيَّامٍ وَأَيَّامٍ، هُنَا، ذَلِكَ الزَّمَانُ . ثُمَّ اكْمَلْتُ قِصَّتَهَا قَائِلَةً : « عِنْدَمَا وَطِئْتُ أَقْدَامَهُمُ الْأَرْضَ، سَارَ الزَّوْجَانِ بِهَيْمَةِ الشَّبَابِ، وَأَنَّ الصَّبِيَّ بَيْنَهُمَا، يَبْدُو وَكَأَنَّهُ حَفِيدٌ لَا ابْنَ ! شَهْرًا بِكَامِلِهِ تَنَقَّلَ الثَّلَاثَةُ السُّعْدَاءُ فِي أَرْجَاءِ أُرُوبَا، وَمِنْ مَرْكَزٍ سِيَاحِيٍّ إِلَى مَنَازِلٍ، حَتَّى عَالِيَةٍ. جَنَّ جُنُونُ الْأَبْوَيْنِ. - مَاتَ؟ شَهَقَ الثَّلَاثَةُ الصِّغَارُ مَعًا، أَيُّهَا الْأَحْبَاءُ، لِأَنَّ الْحَيَاةَ فِيهَا الْفَرَحَ وَالْحُزْنَ، وَفِيهَا السَّعَادَةُ وَالتَّعَاسُفُ، وَنَهَائَتُهَا دَائِمًا الْمَوْتُ. وَهَكَذَا، بَيْنَ لَيْلَةٍ وَضُحَاها، عَجُوزَيْنِ مُحْطَمَيْنِ، وَرَجَاءٍ، حَدَّثَ لَهُمَا شَيْءٌ غَرِيبٌ. فَقَدْ ظَهَرَ لَهُ طَيْفُ ابْنِهِ يَقْتَرِبُ مِنْهُ، يُخَاطِبُهُ بِلَهْجَتِهِ الرَّقِيقَةِ : لَا يَا أَبِي عَهْدِي بِكَ مُؤْمِنٌ، وَتَذَرُكَ أَنْ اللَّهَ حَكَمَهُ فِي كُلِّ مَا يُصَادِفُنَا نَحْنُ الْبَشَرُ . وَسَأَلَهُ أَبُوهُ فِي الْحُلُمِ بِلَهْفَةٍ : وَمَاذَا تُرِيدُنِي أَنْ أَفْعَلَ يَا وَلَدِي؟ أَجَابَهُ ابْنُهُ بِصَوْتِهِ الرَّقِيقِ الْوَاضِحِ شَدِيدُ فِي مَدِينَتِنَا جَامِعَةً عَلَى اسْمِي، وَأَنْفَقُ عَلَيْهَا بِسَحَاءٍ، لِأَنِّي سَأَعُودُ إِلَى مِنْ خِلَالِ هَذِهِ الْجَامِعَةِ، وَرَاحَةُ النَّفْسِ وَالْعِزَاءِ. اسْتَفَاقَ الرَّجُلُ، وَمَا تَزَالُ كَلِمَاتُ ابْنِهِ الشَّبِيهَةِ بِالرُّؤْيَا، تَرِنُ فِي أُذُنَيْهِ. انْزَاحَ جُزْنِيًّا عَنْ صَدْرِهِ! أَقْطَعَ زَوْجَتَهُ. وَفِي الْيَوْمِ التَّالِيِ، شَدَّ الرِّحَالُ عَائِدِينَ إِلَى وَطَنِهِمَا، وَبَاشَرَا عَلَى الْفُورِ